دين البـــادية

عن لامرتين

للأستاذ التنوخى

عضو المجمع العلمى العربى وكاتب سره

وأولئك الملاحون السابحون الى الأبد على بحار من الرمال ، قد أكسبهم الاعتياد أخلاقاً متشابهة ، بمشاهدة مناظر متشابهة ، وسكنى منازل متشابهة ، وبتنقلهم المستمر لخطوات متشابهة ، فى طرق ومسالك متشابهة ، فسجاياهم على ذلك مشابهة لسجية البادية . إنهم لتمسكون بدينهم تمسك اللانهاية بهم ، وأحرار بحرية الفضاء المكشوف لهم ؛ وجوّالون تجوال الجواد الذى يُقلهم ، والناقة التى تحملهم ، والقطيع الذى يتبعهم ؛ وهم أجاويد مثل الخيمة المفتوحة أبداً لأخى الأسفار ، أضلته مجاهلُ القفار ؛ ومغاوير لهم جرأة المدين بحياته لقوة عضلاته ، والمضطر للذود عن حريته ومأواه ، والدفاع عن مائه ومرعاه ، من غزوات القبائل والغارات المداهمة ؛ وهم بحكم العادة ميّالون كالوحدة الى الصمت ، ومولعون بالحديث أحيانا ، شأن الانسان الذى يلاقى بعد طول الوحشة أخاه الانسان فيحدثه عن كل شئ ، ويستخبره عن كل شئ ؛ وهم مفطورون على السمر وعلى التأمل فطرة الليل والنهار ، والكواكب والآفاق التى يقع عليها أبصارهم أبداً ؛ وهم قصّاص بارعون لاضطرارهم الى قضاء ساعات الفراغ الطويلة فى سرد الحكايات والأخبار والعجائب إما تحت الخيام أو حول الآبار تسليةً للقلب من البلبال ، وتزجيةً لساعات الفراغ والملال

قدم تمثال القديس تبريها قبلات عبادة المؤمنين ، حتى لتضطر الكنيسة الى تغييرها كلما انبرت ليمغرون أولئك الذين ... الخ »

عندئذ فقط عرفت ما شرد عن ذهنى ، وعرفت ذلك القديس العظيم الذى ولد فى مصر وفى مطبعة مصر

وعرفت أنه ولد على يد واضع فهرس الأعلام ، وعرفت أن ذلك الواضع هو أبو ذلك القديس العظيم ! !

أبو مجاج

إن من لم يكتحل بمشاهدة غروب الشمس فى ضبابة حمراء من الجحيم يعكس نورها ذلك الرمل المنتشر ما بين النهرين ، أو بلاد الكلدان ، ومن لم يراقب طلوع الكواكبِ متهاديةً ، ثم هبوطها فى ليالى الشتاء على بحر محيط من الأثير الأزرق ، أعمق من الفكرة التى نغوص فيه ، وأصفى من ماء البحر فى رأس الأرض المنتصب الذى يحول دون لألائه والتجعّد ، ومن لم يسمع همس تلك النسمات المتوالية من ريحٍ لم يتم فى البادية سكونها ، وكيف تهيم بصوتٍ رخّمه فى المسامع مروره على تلك الروابى والهضاب ، وعلى عذبات أوراق الأعشاب ، ومن لم يطرح طرفه كل مطرحٍ فى ذلك الفضاء الذى لا وراء بعدَه ، والذى يغيب فى الله أفقه الرحيب ، ومن لم يبصر فى تلك الظلال الجانبية من الجمال الباركة كيف ترتسم صورها فى أجواز السماء ، وهى جامدة جمود تلك الصور الجانبية من ظلال تماثيل أبى الهول الصخرية على سود تلك الرمال المصرية ، من كان هذا شأنه لا يحق له أن يحكم على ذلك العربىّ المنتجع لمواطن الماء والكلأ ، ولا على ذلك السحر الذى يستهويه ، وبقضاء الله الذى يرضيه

أجل إن تلك الارتسامات والحساسات ، وما يعرو الانسان فى البادية من وساوس وهواجس لبعيدة المصدر بعداً يخيِّل معه للمرء أنها صادرة عن اللانهاية نفسها ، وأن تلك الأنوار المنهمرة أمطارا من النار على الروابى والبوادى ، لم تنهمر قطّ على سطوح المدن والقرى ، ولا تلوثت بالدخان المتصاعد من مداخن المساكن ، وفى آناء الليل والنهار لا يحول بين الروح وصانعها حائل ، فيشعر الانسان لذلك بيدٍ خفيةٍ لكنها ملموسة ، هى يدُ الخالق على خلقه ، ويبصر فى كل لمحة تجلى الصانع خلال ذلك البحر من الضياء الذى يغمره ، وفى حدود ذلك الأفق الذى يكتنفه من الغموض ما يخيل للمرء أن لا وراء بعده إلا المجهول ، وفى ظلال الليالى تجوس الأبصار خلال الكواكب فتلحقها أو تسبقها إلى منازلها ، فهى تشهد بدون حجاب ذلك النظام المحكم ، بل ذلك الاتقان الناطق بكلمة الايمان !

إن الدين وهذا الايمان المستقر فى الأرض منشؤه علم النجوم فى بوادى كلدة ، وإن الحروف التى يتألف منها الاسم الالـهىّ تقرأ بأبهر مبنى وأعمق معنى ، وهى منقوشةٌ على ألواح السموات ،

وإن المخيلة لتغتذى برؤى السماء ورُقى الأضواء ؛ وإن التجليات الخارقة الغيبيّة مع تجسيم الحقيقة بالأوهام ، لا تزال منذ بدء العالم على حالها ، والرجل المدثر برداء التقوى والأيمان لا يتأثر إلا بالانفعال الذى هو به جدير : أعنى به انفعال اللانهاية والخلود

إن جميع العقائد لمنبعثة من تلك الخلوات منذ عهد الالـه (الكوكب) مركز عوالم زرادشت ، حتى (الله) رب محمد ، ومنذ الالـه المشرع (يهوه) موسى ، حتى الالـه (الكلمة) التى يبحث عنها متى سجا الليل رعاة بيت لحم

فالعربيّ (وهو السر المكنون كالسكون ، والمتأمل كالليل ، والمستوحش كالوحدة ، والمصدّق بالمعجزات كرقية السحر الخالدة يُستنزل بها الوحى ، ويُسترق بها السمع) ، له من قوة الحواس ما يدرك بها الله فى الصحراء أكثر منا : إن حياته لعبادة أبدية ، فهو لا يلهيه عن الخالق شيء ، ورحابة البادية التى لا حد لها هى معبده والمحراب ، فما كان لهذه الطبيعة أن تلتقى والالحاد أبداً

أمع مثل هذه الطبيعة يتاح لبدوىّ أن يلحد يوماً ؟ خذوا أىّ زنديق من زنادقة الغرب ، واقذفوا به بضع سنين الى المشرق تجدوه لا يخرج منه إلا معافىً من تلك العاهة الروحية : إن الالحاد لا ينشأ إلا فى الظلال ، وفى مواطن الحرمان من التأمل والخيال ، ومدن الغرب التى يصاب فيها المرء بدُوار الرأس والخبال ؛ إن الشمس لتستأصل شأفة الكفر والالحاد والشبهات ، لأن تلك السموم الباردة لا تنمو إلا فى الظلمات ؛ وإن ذلك الفضاء الرحب ، وهو ملك البصر ، ليمنح العربى من الشعور بكرامته ما هو أشد من البادية عنجهيةً ، وأكثر منها حرية ، ذلك أن الجماعة تسحق الأفراد والوحدة تسمو بهم ، والمنفرد يشعر بعظمته فى كل حين ، لأنه إنما يقيس نفسه بالنظر الى عظمة الطبيعة وسَعة سلطانها ، لا إلى تلك القيمة العددية الخفية التى يمثلها بكيانه بين ظهرانى جمهور لا يُحصى من مدينة غاصة بأحيائها ، وأمة كبيرة بوفرة أبنائها . إن هذا الشعور بالعظمة الذاتية ليجعل من الانسان مخلوقاً غير خليق بالصغار ، وليحمله على إباء الضيم والعبودية ؛ أجلْ إن العربى ليخضع لدينه ولرياسة الأسرة الالـهية ، ولعادات السادات شريعة العرف المقدسة ؛ ولكنه لا يخضع للقوة الغاشمة أبداً !

التنوخى
عضو المجمع العلمى العربى وكاتب سره

فتح العرب للأندلس

بقلم فريد مصطفى عزّ الدين

فى مدة قصيرة لا تتجاوز عقدين من السنين ، ولا تساوى فى حياة الأمم فترة من حياة الأفراد تمكن العرب من تدويخ امبراطوريتين كانتا أعظم دول ذلك العهد . فاكتسحوا الأمبراطورية الفارسية وثلوا عرش أكاسرتها ، وسودوا دينهم ولغتهم على سكانها ، وكانوا فى الوقت ذاته ينتزعون من الامبراطورية البيزنطية ولاياتها الشرقية الواحدة تلو الأخرى . فدخلت سورية الكبرى ومصر ، وطرابلس الغرب ، وتونس والجزائر والمغرب الأقصى فى دولتهم الفتية ، وانضوى سكانها تحت راية القرآن والدين الحنيف

وكأنى بالفاتحين وقد جثموا على الشاطئ الأفريقى ، ورأوا قبالتهم الشاطئ الأوربى لا تفصلهم عنه إلا شقة ضيقة من الماء أخذتهم نشوة النصر والظفر ، ووطنوا العزم الأكيد على تدويخه وأن يمثلوا مع الأسبان الدور الذى مثلوه قبلاً مع الفرس والرومان

كانت أسبانيا قبل الفتح العربى فى حالة اضطراب وفوضى ، تتنازعها الثورات والفتن . والعامل الأكبر فى هذا التقلقل والاضطراب راجع الى النظام الاجتماعى الفاسد الذى كان سائداً عندئذ فى البلاد . فقد كان سكانها يقسمون الى أربع طبقات هى :

١) الأشراف ـ ٢) سكان المدن ـ ٣) الفلاحون ـ ٤) العبيد

أما الأشراف فكانوا أصحاب النفوذ والسيادة ، غير أنهم انصرفوا فى آخر عهدهم عن أمور الدولة إلى اللهو والبذخ والمجون . وكان سكان المدن ـ ومعظمهم يهود ـ يتحملون معظم الضرائب التى كانت عبئاً ثقيلاً على عاتقهم جعلتهم تواقين للخلاص من حالتهم الحاضرة . أما الفلاحون فكانوا وسطاً بين الأحرار والعبيد ، إذ أن التملك كان محرماً عليهم إلا باذن الشريف الذى يقعون فى دائرة نفوذه ، ولذا كان القليل النادر منهم ملاكا . وكان العبيد وهم أكثر السكان عدداً يباعون كالسلع ويسامون من العذاب أشكالاً وألواناً . فليس غريباً إذاً أن يهربوا فى بعض الأحايين من نير أسيادهم الى الجبال والقفار ، فيعتصموا